إسهامات الأستاذ الدكتور حسام الخطيب رحمه اللّه
في خدمة اللغة العربية وآدابها

أ. د. عبد النبي اصطيف(*)

بين يدي المحاضرة:

كيف يمكن اختزال شجرة باسقة وارفة الظلال من أشجار العلم والمعرفة، تفيأناها واغتنينا بخيرها سبعة عقود، وكيف يمكن تكثيف فسحة رحبة غنية امتدت نحوًا من ثلاثة أرباع القرن من عمر عَلَم نذر نفسه للعمل العام: معلِّمًا في بصرى الشام، فمدرِّسًا للعربية والإنكليزية في ثانويات دمشق، ورئيس تحرير لمجلة المعلم العربي، ومحاضرًا ثم أستاذًا للأدب المقارن والأدب الغربي في جامعة دمشق، وعضوًا مؤسسًا لاتحاد الكتاب العرب بدمشق، ورئيس تحرير لمجلة الآداب الأجنبية، ومستشارًا في رئاسة الجمهورية العربية السورية، وعضوًا في المجلس الوطني الفلسطيني، وعضوًا في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وأمينًا عامًّا مساعدًا للاتحاد البرلماني العربي، ومستشارًا لرئيس مجلس الشعب في الجمهورية العربية السورية، ومؤلِّفًا لعشرات الكتب، وباحثًا مرموقًا، وكاتب زاوية أسبوعية، وأستاذًا جامعيًّا متميزًا، عُرف بمثابرته على محاضراته وعلى جلسات إشرافه على طلاب الدراسات

(*) ألقى عضو مجمع اللغة العربية المراسل الدكتور عبد النبي اصطيف هذه المحاضرة في قاعة المحاضرات في المجمع بتاريخ ٢٥/ ١/ ٢٠٢٣.

العليا في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة دمشق، ثم أستاذًا في كلية التربية في جامعة صنعاء، ثم عميدًا لكلية الآداب في جامعة تعز، ثم أستاذًا في جامعة قطر، ومشاركًا فعالًا، في الندوات والمؤتمرات القطرية والعربية والدولية، ألفته المنابر، واغتنت بفكره وإسهاماته محافل أهل القلم والفكر والسياسة - أقول كيف يمكن اختزال حسام الخطيب هذا الذي قدمت وأكثر، فهو كذلك الزوج المثال، والأب القدوة، والأستاذ الأسوة، والصديق المخلص الوفي في حديث ينبغي ألا يتجاوز الساعة يستضيفه منبر مجمع اللغة العربية بدمشق. فالرجل، وأي رجل كان حسام الخطيب، بحاجة إلى مؤتمر خاص يعقد لتناول مختلف جوانب إسهاماته، يتناوب على منصته مختصون في السياسة، والفكر، والفن، والأدب، والنقد، والدرس المقارن، والتربية، والترجمة، والإدارة الجامعية، لعلهم ينجحوا في إنصاف رجل كان يومه دهرًا، وكانت ساعاته حقبًا، خاصة وأنه ملأ كليهما حزمًا وعزمًا، كفل بهما عمرًا ثانيًا، هو ذكره الطيب العطر.

ولذلك أرجو أن تعذروا إيجازي في الحديث عن إسهامات حسام الخطيب في دراسة اللغة العربية وآدابها، لأن محاضرتي عنها لن تكون أكثر من رؤية طائر محلق لدوحة خضراء جمعت أجمل ما في الحياة الإنسانية من عمران فكري وفني وأدبي، فأدت رسالة صاحبها أمام الوطن والأمة خير أداء.

١- التحدي الأكبر:

ربما كان التحدي الأكبر الذي يواجه المثقف الباحث، أو الباحث المثقف، في المجتمع العربي المتطلع نحو الانتماء بحق إلى العالم المعاصر، هو التوفيق بين مشاركته في العمل العام الذي يسعى من خلاله إلى تحقيق ذاته بوصفه عضوًا في مجتمع يتفاعل معه ويمارس فيه وظيفته (أو وظائفه) التي أسندت إليه، ويُسهم على نحو ما في تغيير واقعه وبلوغ بعض تطلعاته إلى

مستقبل أفضل لهذا المجتمع، وبين قدرته على الإسهام الخاص الذي يحقق من خلاله طموحاته بوصفه باحثًا يعمل ضمن تقليد بحثي في حقل معرفي معين اختاره، ويودّ أن يخلِّف وخلال عمره المحدود نسبيًا إرثًا يُذكَر له، ويُذكِّر به، ويُنسب إليه، ويحمل اسمه في مجتمع يخضع لتحولات كبرى على جميع المستويات. وكثيرًا ما خَسِر العلم والمعرفة في المجتمع العربي الحديث باحثين مؤهلين تأهيلًا عاليًا، وواعدين جدًا، وقادرين على إضافة ما، أو إسهام ما، أو فتح ما، في حقل تخصصهم، وكثيرًا ما ضحى هذا المجتمع بهؤلاء الباحثين من أجل تجنيدهم للعمل العام السياسي أو الاجتماعي أو التربوي أو الإداري، بعدما أنفق الوقت والجهد والمال في سبيل إعدادهم لما خُلِقوا من أجله من البحث والدراسة والتحصيل والارتقاء في معارج العلم والمعرفة، وكان حاله في هذا حال غارس النخل الذي يُؤخَذ – وقد رأى نموّ نخله وجماله – بظلِّه ومظهره وتناسقه، فيقتلعه ويضعه صوى أو زينة في الشوارع العامة، أي يوظفه لغير ما أُعِدَّ له أصلًا، ولربما رأى فيما بعد في الثمر الجنيّ الذي يحمله عبئًا ينبغي التخلص منه. إذ إنه ربما يُسبِّب مشكلات يومية يمكن أن يستغني عنها، كالعناية به أو جمعه أو توزيعه، أو غير ذلك مما لا يتلاءم مع الوظيفة التي اختلقها له. ولذا يتداول الناس مطلبًا يردّدونه في مختلف المجالس في مجتمعات دول الجنوب هو «وضع الرجل المناسب في المكان المناسب»، يرون فيه سبيلًا للإصلاح واللحاق بركب الدول المتقدمة التي يُعزى إليها التمسك بهذا المبدأ نهجًا في تنظيم شؤونها وتعبئة مواردها والنهوض بمختلف جوانب حياتها.

والناظر في سيرة حسام الخطيب العلمية والمهنية، بوصفه باحثًا مثقفًا، أو مثقفًا باحثًا، جمع بين البحث والدراسة والنقد والتأليف من جانب، وبين العمل

العام مدرِّسًا ومحررًا وأستاذًا جامعيًا وإداريًا علميًا وبرلمانيًا نشطًا على المستوى القطري والعربي والدولي من جانب آخر، لا يسعه إلا أن يغبطه، غبطة ما بعدها غبطة،على تمكُّنه من التوفيق، وبدرجة ملحوظة، بين النجاح في العمل العام وأداء الوظيفة الاجتماعية – أو الوظائف الاجتماعية– المنوطة به على وجه مرضٍ من جهة، وبين النجاح في العمل الخاص – العمل البحثي الذي يسعى من خلاله إلى دفع المعرفة الخاصة به خطواتٍ نحو الأمام من جهة أخرى. بل وأكثر من هذا فإن إسهامه في ميادين البحوث التي عمل فيها وخلال مايتجاوز ستة عقود، والذي يُعَدُّ بحق صوى بارزة لا يمكن تجاهلها من جانب أي متخصص في هذه الميادين، مرتبطٌ وعلى نحو عضوي بعمله العام الذي تبادل معه «التحفيز» «motivation» بصورة جعل كل منهما مدينًا للآخر بطريقة أو بأخرى.

وثمة، فوق كل ما تقدم، خيط خفي يتخلل كل إسهاماته البحثية هو تساميه المستمر في مسعاه نحو الأفضل في كل فرصة تتيسّر له – هذا التسامي الذي يتجلى في مراجعته لعمله وتطويره وإغنائه حتى يستقيم له في صورة أفضل من سابقتها، وكأن شعاره الذي يحكم عمله البحثي «لا ترضَ بالحسن، فتش عن الأحسن». ولا شك أن تكوينه الثقافي الذي جمع فيه بين الثقافتين العربية والغربية، ينهل منهما ويعلّ(*) على نحو مستمر، قد ساعد على توسيع آفاق نظرته إلى الأمور التي يتفحصها، وعلى وضعها باستمرار في إطار أوسع يكفل رؤيتها على نحو أكثر موضوعية مثلما يضمن الارتقاء بمعايير تقويمه لها، نتيجة الأخذ بمبدأ «حس النسبة» «sense of proportion» الذي غالبًا ما نفتقده في الثقافة العربية الحديثة، ولا سيما في تلك الميادين والوجوه المتصلة بالريادة واستشراف الآفاق الجديدة.

(*) علَّ يَعِلُ علًّا وعَلَلًا: شرِب ثانيةً أو تِباعًا (المعجم الوسيط) [المجلة].

٢- ارتياد الآفاق

وليس ما تقدّم ضربًا من الحديث النظري الذي يطمح إلى تأطير إسهام الخطيب في الثقافة العربية الحديثة وتحديد النظام المهيمن عليه والناظم لمختلف جوانبه. ففي كل أفق ارتاده هذا الرجل شاهد بيّن على القدرة على الجمع بين العمل الخاص والعمل العام، وتبادل التحفيز فيما بينهما، والتسامي الدائم نحو الأفضل في سعي لبلوغ الكمال. ولعل إشارات موجزة إلى بعض هذه الآفاق تفي بالحاجة في هذا المقام.

٢- أ - القصة السورية حبّ الخطيب الأوّل:

وإذا ما بدأ المرء بحبّ حسام الخطيب الأول وهو النثر القصصي العربي في سورية، فإنه يمكن أن يشير إلى التحقيق الأدبي[١] الذي أجراه في مجلة **المعلم العربي** (التي تصدرها وزارة التربية في دمشق) عام ١٩٦٦ (وكان رئيس تحريرها بين عامي ١٩٦٤ و١٩٦٦) ونُشر في عددين متتاليين من تلك المجلة، عن كتّاب القصة السورية، ثم إلى انصرافه نحوًا من ثلاثة عقود لدراسة هذه القصة بين عامي ١٩٣٧ و١٩٦٧ في رسالته لدرجة الدكتوراه التي منحتها له جامعة كامبريدج عام ١٩٦٩، ثم إلى نشره عددًا من المقالات والدراسات المهمة عن «المؤثرات الأجنبية في القصة السورية» في مجلة **المعرفة** (التي تصدرها وزارة الثقافة في دمشق)، وسواها في مطلع السبعينات، ثم إلى كتابه «أبحاث نقدية ومقارنة»[٢] الذي صدر عام ١٩٧٣، وضمّنه بحثًا مطولًا عن «المؤثرات الأجنبية في القصة السورية»[٣] قدّم فيه تمهيدًا حول نشأة القصة

(١) **المعلم العربي** (دمشق)، السنة ١٩، العدد ١، كانون الثاني-شباط-آذار، ١٩٦٦.

(٢) انظر: د. حسام الخطيب، **أبحاث نقدية ومقارنة** (دار الفكر، دمشق، ١٩٧٣).

(٣) انظر: **المرجع نفسه**، ص ص ١٣٩-٢١٢.

العربية، انتقل منها إلى دراسة نشأة القصة السورية ومراحل تطوّرها وعلاقة هذا التطور بالتطورات الثقافية القطرية والعربية والعالمية وختمه بدراستين تطبيقيتين موسعتين لروايتي «**في المنفى**» لجورج سالم و«**العصاة**» لصدقي اسماعيل من وجهة نظر مقارنة، تلمّس فيهما أشكال المؤثرات الأجنبية في هذين الأثرين ودورها في تشكيلهما على النحو الذي خرجا به على القارئ العربي. وما لبث أن صدر هذا البحث في العام نفسه مُوَسّعًا في كتاب مستقل عن **معهد البحوث والدراسات العالية** في القاهرة حمل عنوان «**سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية**»(٤)، وضمّ محاضرات الخطيب على طلبة المعهد. ثم تتالت طبعات الكتاب في أعوام ١٩٧٤، و١٩٨٠، و١٩٨١، و١٩٩١، كان مؤلفه في أثنائها يتعهده بيد التوثيق والتنقيح والصقل والاستدراك والتوسيع والتطوير إلى أن غدا صوّة مهمة جدًا في تاريخ التأليف البحثي المقارن في الوطن العربي ولا سيما في سورية حيث مارس «تأثيرًا محدَّدًا في الكثير من الدراسات التي تناولت القصة السورية» خلال ربع القرن الذي مضى على ظهوره الأول، وترك بصماته واضحة على العديد منها، إذ قُبل معظم ما انتهى إليه من نتائج ارتقى بها التدليل والتوثيق إلى درجة المسلمات، واعتمد تحقيبه للقصة السورية بأجناسها الفرعية المختلفة استنادًا إلى مسوغاته التي ظفرت بالتقدير والاستحسان(٥).

---

(٤) من أجل الاطلاع على تقويم لأهمية هذا الكتاب انظر: عبد النبي اصطيف، «المؤثرات الأجنبية في القصة السورية مخفورة»، **الموقف الأدبي** (دمشق)، العدد ٨٩، أيلول ١٩٧٨، ص ص (١٤٠-١٤٩)؛ «**سبل المؤثرات** من منظور مقارني»، في: د. حسام الخطيب، **سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية: دراسة تطبيقية في الأدب المقارن**، ط ٥، (مطابع الإدارة السياسية، دمشق، ١٩٩١)، ص ص (٥-٦).

(٥) انظر: عبد النبي اصطيف، «**سبل المؤثرات** من منظور مقارني»، **المرجع نفسه**، ص (٤١).

واستنادًا إلى تحقيق الخطيب الأدبي عن كتاب القصة السورية المذكور آنفًا، وإلى رسالته الجامعية التي أعدّها لاحقًا، بدأ ظهور مقالاته الموسعة النقدية والمقارنة، وعلى النحو نفسه،عن الرواية العربية في سورية، ثم كان كتابه «**الرواية السورية في مرحلة النهوض ١٩٥٩ - ١٩٦٧**» الذي صدر عام ١٩٧٥ عن **معهد البحوث والدراسات العالية** في القاهرة، وضم محاضراته على طلبته، ثم كان كتابه «**روايات تحت المجهر**» الذي ظهر عام ١٩٨٣ عن **اتحاد الكتاب العرب** بدمشق، والذي كان في الواقع طبعة موسعة جدًا ومنقحة، للكتاب السابق الذي تحوّل بمرور الزمن إلى صوّة أخرى مهمة في تاريخ التأليف المعني بالنثر القصصي العربي الحديث.

ويتكرر الأمر نفسه في مجال القصة القصيرة في سورية حيث تتتالى مقالات الخطيب اللافتة للنظر في الظهور ومنذ مطلع السبعينات في الدوريات السورية والعربية والدولية عنها(٦)،مشاركات عامةً في الاهتمام بهذا الجنس الأدبي تبدأ في الغالب محاضرات جامعية أو عامة،أو إسهامات في ندوات أو مؤتمرات داخل الوطن العربي وخارجه، وتنتهي في أول عهدها بالنشر مقالات يترقبها القارئ في المجلات السورية أو العربية أو الدولية، ثم يأتي دور الكتاب فيخرج الخطيب على القارئ العربي بكتابه «**القصة القصيرة في سورية: تضاريس وانعطافات**»(٧) عام ١٩٨٢ يضم فيه معظم إسهاماته البحثية والنقدية والمقارنة في العمل العام المتصل بالتأريخ لهذا الجنس الأدبي في سورية ولا سيما في «**اتحاد الكتاب العرب**» والمؤسسات الجامعية والبحثية، والذي كان للخطيب نفسه دور بارز فيه،

---

(٦) من مثل «**مجلة الأدب العربي**» **Journal of Arabic Literature** التي تصدر في هولندة، ليدنLeiden عن دار النشر بريل Brill.

(٧) **وزارة الثقافة والإرشاد القومي**، دمشق، ١٩٨٢.

إلى أن نجده في نهاية المطاف ينشر كتابه الممتاز **القصة القصيرة في سورية: ريادات ونصوص مفصلية**(٨) عام ١٩٩٨ - الذي يوسّع فيه ويطوّر تجربته مع هذا الفن المراوغ مما يضاعف من حجم الكتاب ويثري حصيلته ويعمقها استمرارًا في متابعة التحولات الأساسية التي اكتنفت نشأة هذا الجنس الأدبي الحديث في سورية وتطوره، وإمعانًا في تجربة الالتصاق بالنصوص، وهو أمر مهم جدًا في ضوء حيرة النقاد العرب المحدثين في مواجهتهم لنصوص القصة القصيرة العربية الحديثة وانصرافهم عنها، إلا من رحم ربك وهم قليل يمكن أن يذكر منهم محمد شاهين وصبري حافظ وآخرون.

والحقيقة أن هذا المسح السريع لمسار اهتمام الخطيب بحبه الأول الذي لا يكاد يتحوّل عنه حتى يعود إليه يوضح بجلاء كيف أن انشغاله بالعمل العام تحريرًا، وتدريسًا، وإسهامًا في الكتابة والمحاضرة والمشاركة في الندوات والمؤتمرات، وغيرها، كان فسحة مهمة جدًا أفاد منها في تحقيق ذاته البحثية، وفي تطوير نتاجها، والتسامي إلى معارج الكمال، والارتقاء على نحو مستمر يعكس نزعته إلى الأفضل في كل ما ينتجه كلما تيسّر له ذلك، فكان العمل العام بهذا المعنى خير حافز على الإسهام المعرفي الخاص بالخطيب الباحث الذي باتت كتبه عن النثر القصصي في سورية معالم بارزة يصعب تجاهلها على أي باحث يودّ دراسته، بل يمكن القول ودون مبالغة إنها تحوّلت إلى ممّرات إجبارية لكل من يودّ المضي في دراسة القصة السورية في هذا القرن وهو أمر يتمناه أي باحث لإسهامه، ولا يتحقق إلا للقليل.

٢ً - ب - الأدب المقارن حبّه الثاني

وحبّ الخطيب الثاني الذي تداخل إلى حد بعيد مع حبّه الأول هو حبّه

---

(٨) منشورات دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٨.

للأدب المقارن نظرًا، وتطبيقًا، وتأريخًا، وهو حبّ منشؤه تكوينه الثقافي الذي جمع فيه بين الثقافتين العربية والغربية مستعينًا على ذلك بمعرفته للإنكليزية التي درسها ودرّسها لغة وأدبًا، وللفرنسية التي كانت لغته الثالثة، فضلًا عن أسفاره العديدة التي شملت معظم بقاع الأرض وامتدت نحوًا من أربعة عقود خبر فيها غنى التنوع الإنساني، سياسة وفكرًا وثقافة وفنًا وأدبًا وطريقة حياة.

ومثلما كان العمل العام حافزًا قويًا على انشغاله بالنثر القصصي العربي السوري والتأليف فيه، وتطوير نتاجه عنه، كان عمل الخطيب العام في سبيل قضية الأدب المقارن حافزًا مهمًا جدًا للكثير من أعماله فيه والتي تحوّلت بدورها إلى كتب لا يستغني عنها شداة هذا الحقل المعرفي المهم، أو المهتمون بتاريخه في الوطن العربي. والحقيقة أن عمله العام في هذا الميدان الذي غدا عنده «قضية عمر رفيعة وليس مجرّد تخصص أكاديمي ومهنة دنيوية يوميّة»[٩] بدأ في وقت مبكر عندما كان يرسل رسائله الثقافية للنشر في **المعرفة** وسواها، في أثناء إعداد رسالته للدكتوراه حول المؤثرات الأجنبية في النثر القصصي في سورية في **جامعة كامبريدج**، وتنامى بعد عودته إلى **جامعة دمشق** عندما سعى ونجح في إدخال مقرّر الأدب المقارن في برنامج الإجازة في اللغة العربية وآدابها وللمرة الأولى عام ١٩٧٢ - ١٩٧٣، ودرّسه فيها لسنوات طويلة وضع في أثنائها كتابه **الأدب المقارن** في جزأين خصص الأول منهما للنظرية والمنهج، وانصرف في الثاني إلى الدراسات التطبيقية الرصينة - هذا الكتاب الذي تلمذ عليه خريجو أقسام اللغات نحوًا من عقدين من السنين، ولا يزال يدرس في قسم اللغة العربية في جامعة دمشق حتى يومنا هذا.

وقد توسع عمله العام هذا، والمتمثل بالتدريس والتأليف الجامعي،

---

(٩) انظر: د. حسام الخطيب، **آفاق الأدب المقارن عربيًا وعالميًا** (دار الفكر، دمشق، ١٩٩٢)، ص (٥).

ليشمل جامعات عربية عدة من مثل **الجامعة اللبنانية، وجامعة صنعاء، وجامعة تعز، وجامعة قطر**،التي درّس المقرر في أقسام اللغات العربية فيها، أو أدخله في مناهجها للمرة الأولى. ولا ينسى المرء في هذا المقام إسهامه في تأسيس **الرابطة العربية للأدب المقارن** في الجزائر عام ١٩٨٤ وانتخابه أمينًا عامًا مساعدًا لها، ورئاسته للجنة التنظيمية التي هيأت لمؤتمرها الثاني الذي عقد في جامعة دمشق عام ١٩٨٦، وانتخابه رئيسًا لذاك المؤتمر، ومشاركاته في معظم مؤتمرات الأدب المقارن التي استضافتها الجامعات العربية المختلفة في العقدين الأخيرين.

وقد كان عمله العام هذا وراء مسعاه البحثي للإسهام في نشر الاهتمام بالدراسة المقارنة في الوطن العربي، فكانت مقالاته التي تُعرِّف بآخر تطورات هذا المجال المعرفي في العالم والتي كان الخطيب يتابعها عن كثب من خلال عضويته في **الرابطة الدولية للأدب المقارن** ومشاركاته في مؤتمراتها العديدة، والتي يسّرت له صلات وثيقة مع عدد من كبار المقارنين في العالم من أمثال رينيه ويليك، وهنري رماك، وفايسشتاين، وإيريكسون، وفايدا، وميرتشا ناديا أنجليسكو وغيرهم. وحسب المرء أن يشير في هذا المقام إلى سلسلة مقالاته التي ظهرت في **المعرفة** السورية عام ١٩٧٩ والتي قدّم من خلالها المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن تحت عنوان «الأدب المقارن بين التزمت المنهجي والانفتاح الإنساني»، وفتح بذلك أفقًا آخر مهمًا من آفاق الدراسة المقارنة أمام الباحثين العرب بعد أن هيمنت المدرسة الفرنسية لعقود طويلة على توجهاتهم النظرية والتطبيقية في الدراسات المقارنة، وكان قد مهّد لذلك بمقالاته المبكرة عن هذه المدرسة في **المعرفة**، وبمراجعته عام ١٩٧٣ لترجمة كتاب **نظرية الأدب** لرينيه ويليك وأوستن وارين، والذي ضمّ تعريفًا موجزًا بهذه المدرسة في الفصل

المعروف المعنون بـ «الأدب العام، والمقارن، والقومي»، مثلما عزّزه بدراساته التطبيقية الممتازة التي التفت فيها إلى المكوِّن الخارجي في الأدب العربي الحديث ولا سيما النثر القصصي فيه كالرواية والقصة القصيرة والسيرة الذاتية كما هو الشأن في دراسته(١٠) لكتاب **الأيام** لطه حسين التي تعدّ بحق من أجمل وأعمق ما كتب عن هذه الرائعة من روائع الأدب العربي الحديث.

والواقع أن الخطيب لم ينقطع عن متابعاته لتطورات الأدب المقارن في العالم وتيسيرها للقارئ العربي وإدخالها في دائرة وعيه انتماءً معرفيًا للعصر يكتفي فيه العرب المعاصرون في الغالب باستهلاك آخر التقليعات والصرعات دون الاهتمام بالتقدم المعرفي الذي يحققه الغرب. وهكذا نجده في السنوات الأخيرة ينشر في مجلة **علامات في النقد الأدبي**، التي يصدرها نادي جدة الأدبي، مراجعات نقدية(١١) آخر ما نشر من مباحث نظرية في الأدب المقارن في العالم، ويقدم مسوحًا تكاد تكون شاملة لآخر تطورات هذا الحقل المعرفي(١٢)، ولا سيما في العالم الأنكلو أمريكي الذي قدّم إسهامات معتبرة في توسيع آفاقه واستكشاف مجالاته الغنية والشائقة.

والغاية من مسعى الخطيب هذا في التعريف بتجارب الأمم الأخرى في الأدب المقارن كانت الارتقاء بالتفكير النظري العربي والممارسات

(١٠) انظر: د. حسام الخطيب، «أيام طه حسين وفن السيرة الذاتية»، **المعرفة** (دمشق)، العدد ١٥٣، تشرين الثاني، ١٩٧٤، ص ص (٦١-٨٠).

(١١) انظر: د. حسام الخطيب، «الدراسات الترجمية: هل يمكن أن تكون بديلة للأدب المقارن؟» **علامات في النقد الأدبي** (جدة)، الجزء السابع والعشرون، المجلد السابع، ذو القعدة ١٤١٨هـ، مارس ١٩٩٨، ص ص (٧-٢٦).

(١٢) د. حسام الخطيب، «تضاريس النشاط النشري في الأدب المقارن عند انثناءة القرن»، **علامات في النقد الأدبي** (جدة)، الجزء الخامس والعشرون، المجلد السابع، جمادى الأولى ١٤١٨هـ، سبتمبر ١٩٩٧، ص ص (٣١-٧٢).

التطبيقية العربية في هذا الميدان، حتى يستقيم مساره في الثقافة العربية. ولعل هذه الغاية هي التي دفعت الخطيب إلى الاهتمام بتاريخ الأدب المقارن في الوطن العربي والقيام بأبحاث أصيلة مُحَدِّدة لمجالات الريادة فيه نظرًا وتطبيقًا. من هنا كان انصرافه بداية إلى الكشف عن ريادة روحي الخالدي في الدراسات التطبيقية في تاريخ الأدب العربي المقارن، من خلال أبحاثه التي قدّمها في المؤتمرات الدولية والعربية ومقالاته ودراساته التي نشرها في عدد من الدوريات العربية والدولية، ومحاضراته وأحاديثه ومقابلاته، والتي تتوجت بكتابه «**روحي الخالدي: رائد الأدب العربي المقارن**» الذي صدر عام ١٩٨٥، والذي استبقه بالعناية بإعادة نشر كتابه الرائد «**تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو**» محرَّرًا، والتقديم له في طبعته الرابعة التي صدرت في دمشق عام ١٩٨٤.

ويمكن للمرء كذلك أن يدرج في هذا المنحى اهتمامه بالكشف عن ريادة خليل الهنداوي في إدخال مصطلح «الأدب المقارن» إلى الثقافة العربية الحديثة عام ١٩٣٦، ومُكابدتَه عناءَ مراجعة عدد كبير من الدوريات العربية المختلفة في أثناء سنة البحث العلمي التي أمضاها في العام الدراسي ١٩٨٧ – ١٩٨٨ في **جامعة إنديانا** بحثًا عن «العنوان الأول والنص الأول» في نظرية الأدب المقارن في الثقافة العربية الحديثة. وكذا الشأن في جهوده اللاحقة التي ظهرت بالعربية والإنكليزية والتي كان آخرها كتاب «**آفاق الأدب المقارن عربيًا وعالميًا**» الذي يعد بحق أفضل مدخل للمدرسة الأمريكية في الأدب المقارن تيسّر للقارئ العربي حتى يومنا هذا، وأكثر التواريخ العربية تساميًا للكمال للأدب العربي المقارن في القرن العشرين، فضلًا عن محاولة صياغة وجهة نظر عربية في الأدب المقارن تنطوي على سعي جاد ومخلص لخدمة قضية

الأدب المقارن في الوطن العربي[١٣]، قضية عُمْر الخطيب الذي كان أبدًا محمّلًا بالثمر الطيّب الجنيّ الذي تتوق إليه الأجيال العربية دومًا.

٢ً - ج، الخطيب وثقافة الآخر

والواقع أن أهم ما يميز ثمر الخطيب أنه ثمر مُوَلّد اغتنى بمورثات منّوعة شرقية وغربية عربية وأوربية، وربما كان من أهم ما يُحمد للخطيب سعيه لإشراك القارئ العربي بهذا المكوّن الخارجي الذي أسهم في تكوينه الثقافي منذ وقت مبكّر يعود إلى سنوات الدراسة للإجازة في اللغة الإنكليزية وآدابها بين عامي ١٩٥٥ و١٩٥٩. ويتمثل هذا المسعى من عمله العام في **رسائله الثقافية** التي كان يرسلها للنشر من بريطانيا، وفي **تغطيته للمؤتمرات** التي كان يحضرها وتحليلاته لها والتي ما فتئ ينشرها في مختلف الدوريات العربية، وفي محاضراته الجامعية في الأدب الأوربي ونقده، وفي ترجماته، أو مراجعاته لترجمات غيره، وفي كتابه المتسامي نحو الكمال بالزيادة، والتوسيع، والتعديل، والتنقيح، الذي ظهر أول ما ظهر عام ١٩٧٢ بعنوان «**الأدب الأوربي: تطوره ونشأه مذاهبه**»[١٤]، ثم تولته يد الخطيب بالتطوير والتوسيع والتنقيح والزيادة،فظهر عام ١٩٧٥ تحت عنوان «**محاضرات في تطور الأدب المقارن ونشأة مذاهبه واتجاهاته النقدية**»[١٥] منشورًا من جانب جامعة دمشق،

---

(١٣) من أجل الاطلاع على تقويم لأهمية هذا الكتاب انظر: Abdul Nabi Isstaif, "Comparative Literature in the Arab World: An Overview" **The Comparatist,** Vol. XIX, May 1995, pp. 134–140.

(١٤) مكتبة أطلس، دمشق، ١٩٧٢.

(١٥) من أجل الاطلاع على تقويم لأهمية هذا الكتاب انظر: عبد النبي اصطيف، «تطوّر الأدب الأوربي من خلال محاولة عربية جادة»، **الموقف الأدبي** (دمشق)، العدد ٦٨، كانون الأول، ١٩٧٦، ص ص (١٢٢-١٣٢).

وتتابعت عليه جهود الخطيب عارجة به إلى سماء جديدة من الإتقان ليخرج لطلاب قسم اللغة العربية وآدابها تحت عنوان «**جوانب من الأدب والنقد في الغرب**» عام ١٩٨٣، يستعينون به على استيعاب المكوّن الخارجي الغربي وعلى فهم دوره في تكوين الأدب العربي الحديث ونقده.

والحقيقة أن تواصل الخطيب مع الثقافة الغربية خاصة والعالمية عامة كان تواصلًا مستمرًا يسَّرته له دراسته في بريطانية أولًا، وأسفاره الكثيرة إلى مختلف العواصم محاضرًا أو مشاركًا في الاجتماعات والندوات والمؤتمرات ثانيًا، ومشاركته في تحرير **الآداب الأجنبية** ورئاسته لتحريرها فيما بعد بين عامي ١٩٨٢ و١٩٩٠ ثالثًا، وإقامته البحثية في الجامعات الأمريكية (**جامعة انديانا** ١٩٨٧ - ١٩٨٨، **وبورتلاند** صيف ١٩٩٥) رابعًا، فضلًا عن ترجماته ومراجعاته لترجمات غيره ومشاركته الأخيرة في ترجمة **موسوعة الأدب العالمي** إلى العربية والتي تعهدتها مؤسسة عربية سعودية في الرياض وأخرجتها موسوعة شاملة ظهرت في أكثر من طبعة.

٢ً - د، الخطيب والعناية بالثقافة العربية الفلسطينية

ومما تجدر الإشارة إليه أن توجّه الخطيب في كل ما قام به من عمل عام أو عمل خاص كان توجهًا قوميًا عربيًا. ولذا فإنه لم ينقطع في يوم عن النظر إلى الظاهرة الأدبية القطرية المدروسة في إطار الظاهرة الأدبية العربية القومية حتى في دراسته للنثر القصصي في سورية، والتي سلخ فيها أكثر من أربعة عقود من عمره. وأكثر من هذا فإنه، وحتى في سعيه إلى إبراز الهوية الفلسطينية المهدّدة على مختلف المستويات من قبل العدو الصهيوني الشرس، حافظ على هذه العلاقة العضوية الحميمة بين الإسهام الأدبي العربي الفلسطيني والأدب العربي الحديث. ذلك أنه وفضلًا على كون قضية فلسطين قضية

العرب المركزية، ثمة مسوّغات داخلية من طبيعة المادة الأدبية المدروسة نفسها تؤكد الوحدة التي لا تنفصم لجسم الأدب العربي الحديث.

يكتب الخطيب في معرض تقديمه لكتابه الموسوم بـ «**النقد الأدبي في الوطن الفلسطيني والشتات**» الذي صدر في عام ١٩٩٦ في سلسلة **أوراق فلسطين الثقافية** التي تنصرف إلى تناول جوانب مختلفة من النشاط الثقافي للشعب العربي الفلسطيني بشقيه المقيم والمشرّد، «وترصد جوانب من إسهامه الأدبي بوجه خاص في نطاق مسيرة الأدب العربي الحديث ذات الوجوه المتعددة»[(١٦)]:

«وسوف يلاحظ القارئ بسهولة أن تأكيد هذا الارتباط العضوي لحركة الثقافة والإبداع الفلسطينية بالمناخ العام للأدب العربي الحديث سيظل الهادي الأول لسلسلة **أوراق فلسطين الثقافية**، وأن المنهج الذي تلتزمه الدراسة هو **منهج عربي شامل وليس منهجًا إقليميًا محددًا بالأبعاد المحلية**. وهذا الالتزام العربي الواسع ليس وليد اليوم أو الأمس، وإنما هو قناعة ولدت مع أبحاث المؤلف الأولى التي حملت عنوانات ذات طابع قطري مثل كتابيه المبكرين اللذين ظهرا أوائل السبعينات وتناولا جوانب من حياة القصة في سورية، وهما:

- سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية.
- الرواية السورية في مرحلة النهوض.

وقد تتابعت بعد ذلك دراسات للمؤلف تناولت النشاط القصصي والنقدي في سورية وفي فلسطين كذلك، وكانت كل تجربة بحثية يخوضها

(١٦) انظر: د. حسام الخطيب، **النقد الأدبي في الوطن الفلسطيني والشتات** (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٦)، ص (٧).

المؤلف تؤكد له بما لا يقبل الشك أنه من غير الممكن تطبيق منهج إقليمي ضيق في دراسات الأدب العربي، ضمن حدود المشرق العربي على الأقل. وهكذا اكتسبت القناعة النظرية (وربما الأيديولوجية) مناعة تطبيقية وانعكست في المنهج والممارسة وطبيعة الاستنتاجات»(١٧).

وهكذا نجده يعلن براءته من المنهجية الإقليمية الضيقة في دراسة ظواهر الأدب العربي الحديث في مختلف أقطار الوطن العربي:

«لا بسبب الالتزام النظري والقومي فقط ولكن أيضًا بسبب مستلزمات طبيعة المادة الأدبية المدروسة التي لا يمكن فصلها عن حركة الإطار الثقافي العربي الذي من محيطه تتغذى ومن أجوائه تتنفس وفي فضائه تنشر شذاها وتنتعش وتتفاعل وتثمر»(١٨).

وكما كان الشأن في دراساته الصوى للقصة العربية في سورية بأجناسها الأدبية الفرعية المختلفة والتي حفزها عمل الخطيب العام تدريسًا وتحريرًا وتأليفًا جامعيًا وإدارة علمية ومشاركات ثقافية عامة، فإن دراساته عن جوانب الحياة الثقافية في الوطن الفلسطيني والشتات أو المنفى جاءت محفوزة بعمله العام بوصفه مثقفًا عربيًا فلسطينيًّا انخرط في النضال السياسي والثقافي من أجل قضية العرب المركزي. وهكذا ضم كتابه «**ظلال فلسطينية في التجربة الأدبية**»(١٩) (١٩٩٠) مجموعة مهمة من إسهاماته في دراسة الموضوع الفلسطيني في الأدب العربي الحديث، هذه الإسهامات التي تمثل انشغاله الدائم بفلسطين مثله في ذلك مثل أي مثقف عربي مُنتمٍ إلى أمته وشعبه. وجاء كتاباه «**حركة الترجمة**

(١٧) انظر: **المرجع نفسه**، ص ص (٧-٨).

(١٨) انظر: **المرجع نفسه**، ص (٩).

(١٩) انظر: د. حسام الخطيب، **ظلال فلسطينية في التجربة الأدبية**، (دائرة الثقافة، منظمة التحرير الفلسطينية، دمشق، ١٩٩٠).

الفلسطينية» (١٩٩٥)، و«**النقد الأدبي في الوطن الفلسطيني والشتات**» (١٩٩٦) اللذان نشرا في سلسلة تسعى للحفاظ على ملامح الهوية الثقافية للوطن الفلسطيني المستلب، حصيلة مطوّرة وموسّعة ومتقدمة لإسهامه في عمل عام يصب في الصراع العربي الصهيوني على الوجود في فلسطين وهو **الموسوعة الفلسطينية** التي شارك فيها ببحثين موسعين هما البحث السابع الموسوم بـ «حركة الترجمة الفلسطينية في القرن العشرين حتى عام ١٩٨٥»، والبحث الثامن الموسوم بـ «النقد الأدبي الفلسطيني الحديث ١٩٠٠-١٩٨٥»، اللذان ظهرا في المجلد الرابع منها. وهكذا كان عمل الخطيب العام المتصل بالقضية الفلسطينية بوصفه عربيًا فلسطينيًا اقتلع من أرضه، وعضوًا في **المجلس الوطني الفلسطيني** يمثل شعبه في الشتات، ومثقفًا منتميًا ملتزمًا بقضية شعبه وأمته يُسخِّر قلمه من أجل خدمة قضاياهما، خير حافز على إسهامه المعرفي البحثي الخاصّ به بوصفه باحثًا أكاديميًا يرغب في تطوير المعرفة الخاصة بالحقل المعرفي الذي اختاره والموضوع المحدَّد الذي أراد أن يحقق ذاته البحثية من خلاله. ولا أعتقد أن باحثًا معنيًا بقضيتي الترجمة والنقد الأدبي لدى فلسطينيي الوطن والشتات يستطيع أن يستغني عن جهود الخطيب المتقدم ذكرها والتي تحوّلت بعزمه وحزمه ودأبه وخبرته إلى مَعلَم بارز في الدراسات المتصلة بالجانب الثقافي من الهوية الفلسطينية المهددة بوجودها.

٣ً - الخطيب ونزعة التسامي في العمل الخاص

والحقيقة أن الخطيب في جلّ ما قام به من عمل عام ارتبط بوطنه المستلَب - فلسطين-، أو وطنه الأوسع -بلاد الشام-، أو وطنه العربي الكبير، كان يسعى لتقديم إسهامه النوعي الخاص به، والذي يحمل بصماته، ووجهة نظره، وموقفه الفكري، ونظرته النقدية، والتزامه الذي لا يتزعزع

بالبحث عن هامش الأفضل في وجوه الحياة العربية الحديثة. وهكذا كانت كتبه في الأدب والنقد الأدبي والأدب المقارن واللغة والثقافة والتي حفزتها نشاطاته العامة خير تجسيد لمسعاه الشخصي في تحقيق ذاته، وأفصح بيان عن تطلعه إلى ذكر الفتى الذي تحدث عنه المتنبي في يوم.

ومما يلاحظه المرء المتتبع لمسعى الخطيب على امتداد العقود الأربعة ونيف هذا القلق الإيجابي المنتِج الذي يكمن وراء تساميه بإنتاجه، ومحاولته المستمرة بالتالي لتطوير أدائه. فهو باحث محكِّك يعيد النظر فيما يكتب وينشر، ويتدبره بالتنقيح والتعديل والتصحيح كلما تيسّرت الفرصة لذلك، ولا يثنيه عن التدبّر بريق الاسم، أو غرور السمعة أو الاطمئنان إلى قلة المحاسبة أو التقويم أو التسآل الشائعة على نحو فاجع في الحياة الثقافية العربية المعاصرة(٢٠).

٤ً - الخطيب والارتياد المستمر

وثمة أمر آخر يطبع مسعاه بالدرجة نفسها من القلق هو روح الرائد الذي يوجه خطاه نحو الجديد باستمرار، وكأنه يأنف من أن يسلك مستن الدروب، أو ألا يقول إلا المعاد والمكرور. ولعل هذا ما يكمن حقًا وراء تحوّله المستمر من أفق بحثي إلى أفق آخر يستشرفه ويروده ويأتي أهله بأصدق الأنباء، والرائد لا يخون أهله، يتلمّس الهدى لنفسه ولقومه إلى ما يرى أنه الحقيقة. وهكذا نجده يستكشف أفق القصة العربية في سورية، ولا يلبث أن يتحول عنه إلى أفق الأدب الأوربي، ثم يجمع إلى ذلك رود أفق الأدب المقارن، منتقلًا بعدها إلى اللغة العربية، فالتجربة الأدبية الفلسطينية، فالأدب والتكنولوجيا وهو أحدث الآفاق عهدًا باهتمام الخطيب الذي انصرف مؤخرًا إلى دراسته وأخرج للقارئ

---

(٢٠) انظر شكوى الخطيب من كل هذه المثبطات في مقدمة كتابه: **آفاق الأدب المقارن عربيًا وعالميًا**، ص ص (٥–٦).

العربي كتابه الشائق والشائك في آن معًا والذي عنونه بـ «**الأدب والتكنولوجيا وجسر النص المفرّع Hypertext**»[(٢١)] (٢١) (١٩٩٦).

والخطيب في كل ما ارتاده من آفاق يبذل ما وسعه الوقت والجهد والخبرة المتنامية المصحوبة بالعزم والحزم منطلقًا نحوها برغبة صادقة في التطلع نحو الأفضل في الحياة الثقافية العربية، وكان غالبًا ما يعود بحصيلة سرعان ما تتحول إلى صوى تهدي شداة البحث العلمي مثلما تعين ذوي الخبرة والمعرفة على المضي في درب العلم والحقيقة. ولكن السندباد القابع في أعماقه كان يدفعه باستمرار إلى الارتحال من جديد بحثًا عن الجديد، وكأنه كان يخشى إخلاق ديباجته، فيغترب ويتجدد ويجدّد ويمضي مثل بروميثوس يكتوي بالنار ويقدّم حصيلتها نورًا يهدي كل عربي متطلع نحو غد أفضل يليق بواضعي الأبجدية، خلفاء الله الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم.

❋ ❋ ❋

(٢١) المكتب العربي لتنسيق الترجمة والنشر، دمشق، ١٩٩٦.